الحياة الاقتصادية والاجتماعية في دولة المرابطين
448هـ – 541هـ / 1056م – 1146م

د . عبدالله عبدالعزيز التقاز ـ كلية التربية أبي عيسى – جامعة الزاوية

المـــقـــدمـــــة :

تعتبر دولة المرابطين من أهم الدول التي قامت بالمغرب في العصر الإسلامي، وتكمن أهمية هذه الدولة في الدور الجهادي الذي قامت به ويتمثل في توحيد المغرب الأقصى تحت الراية السنية، وكذلك تمكن المرابطون من هزيمة الأسبان في موقعة الزلاقة الشهيرة، وبذلك تمكنوا من مد الوجود الإسلامي في الأندلس الذي استمر حدود أربعمائة سنة أخرى.

وتعد دولة المرابطين دولة دينية من الطراز الأول، وهذا ما جعلنا نحاول القيام بدراسة لأحوالها الاقتصادية والاجتماعية للتعرف على مدى نجاحهم في تطبيق تعاليم الإسلام في تنفيذ السياسة المالية، ومجهوداتهم في الاهتمام بأحوال المجتمع، وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث:

يهتم **المبحث الأول** بقيام هذه الدولة، وبتأثير منهجها السياسي والديني على الجانبين الاقتصادي والاجتماعي.

أما **المبحث الثاني** فيتم التركيز فيه على السياسة المالية التي اتبعها المرابطون، ونشاط حكام هذه الدولة في جميع المجالات الاقتصادية من زراعة ورعي وتجارة وصناعة.

ويتناول **المبحث الثالث** الجانب الاجتماعي في دولة المرابطين من حيث العناصر المكونة للمجتمع بها، وتصنيف طبقاتهم مع التركيز على دور المرأة التي امتازت بقدر كبير من الحرية في هذه الدولة.

المبحث الأول

قيام الدولة وتأثيره على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمرابطين

- **أولاً ــ قيـــــــام دولـــــة المـــرابطـــين:**

يرجع أصل المرابطين إلى قبيلة صنهاجة التي تسكن في المناطق الصحراوية جنوب المغرب الأقصى، وتعرف بصنهاجة الجنوب تمييزاً لها عن صنهاجة الشمال الذين كونوا الدولتين الزيدية والحمادية في المغربين الأدنى والأوسط.

وتتفرع صنهاجة الجنوب إلى ثلاثة فروع هي: لمتونة، واجدّالة ومسّوفة، إلى

لمتونة ينتمي حكام دولة المرابطين، وكانت هذه الفروع متحالفة لأجل محاولة السيطرة على تجارة الصحراء الرابطة بين الشمال والجنوب.

وكانت بداية الدولة بخروج أمير صنهاجة يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى مكة قاصدا الحج سنة (1427هـ 1035م)، وعند عودته من الحج مرّ على القيروان فلقي بها الفقيه المالكي الشيخ أبا عمران الفاسي، وحضر مجلس درسه وتأثر بوعظه، فأعجب به الشيخ وسأله عن نسبه وأهله ومذهبهم فرد عليه يحيى وأخبره أن ليس لديهم حتى من يعلمهم القرآن حتى ينتحلوا مذهباً من المذاهب، وطلب من الشيخ أن يوجّه معه من يعلمهم الدين، فاجتهد الشيخ في الأمر لكنه لم يجد أحداً من طلبته بالقيروان يوافق على الذهاب إلى الصحراء، عند ذلك وجّه يحيى برسالة إلى فقيه بالمغرب الأقصى يسكن مدينة نفيس(*) اسمه وجاج بن زللو اللمطي يطلب منه فيها تلبية طلب يحي، فاستقبله وجاج بن زللو ووجّه معه أحد طلبته وهو عبد الله بن ياسين الذي وافق دون تردد[1].

يبدو أن عبد الله بن ياسين إضافة إلى علمه هو رجل راغب في الجهاد، والدليل على ذلك موافقته دون تردد على اجتياز الصحراء ومتاعبها وأهوالها في حين أن غيره من الفقهاء رفضوا القيام بهذه المهمة.

انطلق عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم وبدأ في تعليم قبائل صنهاجة القرآن وأصول الفقه وأخذ ينهاهم عن أمور كثيرة وجدها عندهم منافية للدين فكانوا يوافقونه على مصغى خوفا من زعيمهم يحيى وعندما توفي يحيى قلبوا ظهر المجن وأظهروا نبذهم لعبد الله ودعوته الإصلاحية[2].

خرج عبد الله بن ياسين من مضاربهم مبتعدا عنهم، واستقر بربوة يحيط بها المياه من جميع جهاتها، ومن المرجح أن هذه الجريزة التي قصدها عبد الله تقع في السينغال الأدنى، وكان معه أمير صنهاجة الجديد يحيى بن عمر اللمتوني وأخوه أبو بكر وبضعة رجال ممن اتبعهم من الصنهاجيين[3].

يبدو أن يحي بن عمرو لم تكن له هيبة فخلفه أبوبكر بن إبراهيم على الصنهاجيين فهو لم يستطع أن يفرض عبد الله بن ياسين عليهم، ويتضح في هذا الموقف تميّز عبد الله بن ياسين بالصبر والجد فلم يرجع إلى المغرب الأقصى من حيث أتى.

كثر أتباع عبد الله بن ياسين في هذه الجزيرة حتى وصل عددهم 1000 رجل، وقد أتوا برغبتهم، وعندما تيقّن عبد الله من إيمانهم بالله وإخلاصهم له غزا بهم قبائل صنهاجة، حيث تمكن من قتل مجموعة كبيرة منهم حتى استقام الباقون وكوّن منهم

جيشاً كبيراً أمّر عليهم يحيى بن عمر[4].

وقد تسمى المرابطون بهذا الاسم نسبة إلى الرباط الذي أنشأه عبد الله بن ياسين ـــ وقد نشأت هذه الأربطة منذ عهد مبكر في العصر الإسلامي لغرض الجهاد ثم أصبحت أماكن للتعلم ـــ ويذكر أنهم سمّوا بهذا الاسم لشدة صبرهم وحسن بلائهم[5].

وعُرفوا باللمتونيين نسبة إلى لمتونة أقوى القابئل الصنهاجية التي كان ينتمي إليها حكام هذه الدولة.

وتسموا كذلك بالملثمين لأنهم كانوا في الصحراء يتلثمون لشدة الحر والبرد، ولما كوّنوا الدولة ضيّقوا فيه[6].

هذا وعندما بلغ وجاج بن زللو ما وصل إليه المرابطون من القوة بعث لعبد الله بن ياسين بأن يأتي بهم لتطهير سجلماسة[*] من حكامها من بني وانودين الذين يظلمون أهلها[7].

تقدم المرابطون إلى سلجماسة في جيش كثيف فتمكنوا من هزيمة مسعود بن وانودين الزناتي حاكم المدينة، ودخلوها ثم تركوا البعض منهم فيها، واتجهوا للجهاد في المغرب الأقصى، فغدر الزناتيون بمن بقي، وذلك في سنة (646ه/1054م)[8]، فرجع إليهم المرابطون مرة ثانية وطهروها من وجودهم.

تدفق المرابطون على المغرب الأقصى يفتحون المدينة تلو الأخرى وقتل أميرهم يحي بن عمر في أحد المعارك سنة (447ه/ 1055م) فخلفه أخوه أبو بكر، وبرز في هذه المعارك يوسف بن تاشفين ابن عم الأمير أبي بكر[9].

وبذلك انتصر الصنهاجيون على زناتة منافسيهم التقليديين ليس لكونهم أقوى، ولكن توحدهم وقوة إيمانهم بالمبادئ التي غرسها فيهم عبد الله بن ياسين جعل منهم جيشا لا يقهر، وبالمقابل كان الزناتيون سكان الشمال متفرقين، فأخضعهم المرابطون بسرعة، ورجع الأمير أبو بكر إلى الصحراء لوصول الأخبار إليه باضطراب الأمور فيها، واستخلف يوسف بن تاشفين على المغرب الأقصى[10].

وبرجوع أبي بكر إلى الصحراء يمكن القول إن دولة المرابطين انقسمت إلى مجموعتين :

الأولى: في جنوب الصحراء يقودها أبو بكر بن عمر.

والثانية: في المغرب والأندلس وتزعمها يوسف بن تاشفين وأعقابه من بعده حتى سقوطها سنة (541هـ/1146م) التي نحن بصدد دراسة أحوالها الاقتصادية

والاجتماعية.

- **ثانياً ـ تأثير الجانب الديني على الحياة الاجتماعية:**

يتضح أن قبائل الصحراء كانوا يعانون من تفشي الجهل والتخلف، وذلك لعدم معرفتهم بتعاليم الإسلام، حيث لا توجد عندهم أية مراكز دينية أو علمية في قبائلهم، ويبدو ذلك من رد أميرهم يحيى بن إبراهيم على أبي عمران عندما سأله على مذهبهم، وكذلك الحاجة على اصطحاب أحد الفقهاء المتعلمين إلى مضارب قبيلتهم حتى بعد سفره الطويل انتقل من القيروان إلى نفيس لأجل هذا الغرض.

ويتحدث الناصري عن بداية أمر عبد الله بن ياسين في هذه القبائل بقوله: "فأسرع يعلمهم القرآن، ويقيم لهم رسم الدين، ويسوسهم بآداب الشرع، ونهاهم يتزوجون بأكثر من أربع حرائر...، وجعل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وكبحهم عن كثير من مألوفاتهم الفاسدة وشدّد في ذلك"[11].

وفي خلال وجود عبد الله بن ياسين بين هذه القبائل يذكر ابن الأثير في هذا الصدد "فعرّفهم عقائد الإسلام وفرائضه، فقالوا: أما ما ذكرت من الصلاة والزكاة فهو قريب، وأما قولك: من قتل يُقتل، ومن سرق يُقطع، ومن زنى يُجلد أو يرجم فأمر لا نلتزمه، اذهب إلى غيرنا"[12].

يتضح أن قبائل الصحراء كانوا يعيشون حياة اجتماعية مفككة، فهم أقرب إلى الفساد والتناحر من الصلاح والترابط، وإن كانت هذه القبائل تشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله فيبدو أنهم لا يملكون غيرها، فهم لا يؤدون الفرائض ولا يعرفون التنظيم الاجتماعي الذي دعى له الإسلام سواء في تنظيم الأسرة أو العلاقات بين أفراد المجتمع، ومعاقبة الفاسقين والمجرمين وغيرهم من الذين يهدمون البناء الاجتماعي، ولا يفقهون أي شيء من تعاليم الإسلام الحضارية التي تنظمهم وتطورهم.

هذا ما وجده عبد الله بن ياسين وسعى لإصلاحه، ونجح في ذلك نجاحا باهرا، فقد أصبحت دولة المرابطين يضرب بها المثل في تطبيق تعاليم الدين، والدعوة إلى التكاثف والترابط ضد الأعداء وغيرها من الأمور التي اشتهرت بها دولة المرابطين من تكريم الفقهاء والدعوة إلى التقشف والزهد في الدنيا في أغلب الأحيان.

- **ثالثاً ـ تأثير العامل السياسي على الحياة الاقتصادية:**

كانت قبائل صنهاجة قبل قيام دولتهم قد أقامت حلفاً فيما بينها، ويرمي هذا الحلف إلى مدافعه ملك غانا في الجنوب والسيطرة على مسالك تجارة السودان

بالاستيلاء على أودغست(*)[13].

يتضح أن الصنهاجيين كانوا يعانون من مضايقة مملكة غانا لهم على طرق التجارة، وكذلك كان الصنهاجيون يصطدمون مع زناته في الشمال، مما جعلهم يعيشون في شظف من العيش، وقد أشار اليعقوبي إلى بعض قبائل صنهاجة بقوله: "ومعاشهم من الإبل ليس لهم زرع ولا طعام"[14]، وهذا يعني اعتمادهم على الرعي كوسيلة رئيسية للرزق.

وعندما تكونت دولة المرابطين نراها قد اخترقت إلى الجنوب وتمكنت من القضاء على مملكة غانا، وكذلك أخضعت المغرب الأقصى بكامله، وهذا سهّل للصنهاجيين بطبيعة الحال أموراً كثيرة، فانطلق تجارهم يجمعون المال والذهب دون عناء وخوف ودفع ضرائب، فوصلوا مدى بعيدا من الغنى والثراء.

وانطلاق المرابطين للجهاد في الأندلس بزعامة يوسف بن تاشفين، وانتصارهم على النصارى في موقعة الزلاقة سنة (479هـ/1086م)[15]، وسيطرتهم على الأندلس فيما بعد سهل التواصل بين المغرب الأقصى وبلاد الأندلس، وهذا جلب فوائد كثيرة في ميدان التجارة، وكذلك في المجال الصناعي بجلب الصنّاع المهرة من الأندلس، وسهّل كذلك تسويق الإنتاج الزراعي.

المبحث الثاني
الحياة الاقتصادية في دولة المرابطين

- **أولاً ــ السياسة المالية:**

كانت كل الدعوات الدينية السياسية التي سبقت دعوة عبد الله بن ياسين الجزولي في بلاد المغرب قد اتخذت ــ رغم تباين تياراتها المذهبية ــ من تجاوز الكتاب والسنة في ميادين السياسة الجبائية سلاحاً قوياً لمقاومة النظم السياسية القائمة[16].

وكان عبد الله بن ياسين عند ما كثر أتباعه وبدأ في حروبه الجهادية منذ انطلاقته الأولى من الصحراء قد أمر أصحابه بأخذ الزكاة والأعشار، وأمر بإسقاط المغارم المستحدثة الخارجة عن الدين الإسلامي[17].

يتضح أن عبد الله بن ياسين سار على سياسة مالية اعتمد فيها على محاولة تطبيق الكتاب والسنة، ويبدو أنه كان يتحرك بدافع قوة الإيمان، وليس لغرض سياسي معين.

وكان عبد الله بن ياسين يأمر بالصلاة والزكاة، وأداء العشر، واتخذ لذلك بيت المال الذي يجمع فيه ما يدفعونه[18].

وبهذا وضع عبد الله اللبنة الأولى لسياسة المرابطين المالية والتي اعتمد فيها على الكتاب والسنة، وبذلك أراح الأهالي من الضرائب التي كانت تثقل كاهلهم.

واستمر على هذه السياسة يوسف بن تاشفين الذي لم يفرض مكوسا ولا ما هو خارج عن الشرع في أي مكان من الدولة سواء في المغرب الأقصى أو الأندلس[19]، واستمر على ما أوجبه الكتاب والسنة فقط من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين، ويبدو أنه كان دقيقا في اختيار عمال الجبايات، فقد وُجد في بيت المال بعد وفاته مبالغ كبيرة وهي ثلاثة عشر ألف ربع من الورق، وخمسة آلاف وأربعين ربعاً من دنانير الذهب المطبوعة[20].

يتضح أن سياسة المرابطين المالية المعتمدة على إسقاط المكوس والقضاء على المغارم قد أسهمت في تنشيط الحركة التجارية وانخفاض الأسعار.

وقد اضطر يوسف بن تاشفين نظراً لمصاريف الدولة الثقيلة إلى فرض ضرائب كبيرة على اليهود سنة (464هـ/1071م)، فجمع منهم مالاً كثيراً استعان به على تصريف شؤون الدولة[21].

يبدو أن يوسف بن تاشفين اختار اليهود دون غيرهم وحمّلهم هذه الضرائب، لأنهم كانوا مستقرين في المغرب منذ فترة طويلة وقد أثروا ثراء فاحشا على حساب الأهالي بالطرق الملتوية مثل الربا و غيره من الأمور المعروفة عن سلوك اليهود في التجارة.

وقد أنشأ يوسف بن تاشفين الدواوين المتعلقة بالشؤون المالية وهي ديوان الغنائم ونفقات الجند، وديوان الضرائب وديوان الجباية وديوان مراقبة الدخل[22].

ومما يلفت الانتباه أنه إذا نظرنا إلى الهدية التي قدّمها يوسف بن تاشفين إلى الأمير أبي بكر بن عمر سنة (465هـ/1072م) فيذكر ابن عذاري أنها "خمسة وعشرون ألف دينار من الذهب، وسبعون فرسا منها خمسة وعشرون مجهزة بفاخر الجهازات، وسبعون سيفا محلاة، وعشرون من الأشابر المذهبة، ومائة وخمسون من البغال الذكور والإناث، وخدور كثيرة بنفيس الأمتعة والكسي الفاخرة، وبعث له عشرين جارية أبكاراً وجملة من خدم الخدمة...الخ"[23].

وهذا القول إضافة إلى ما سبق الإشارة إليه من تركة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يرجح أنه اعتمد على مصادر مالية أخرى غير التي ذكرت متمثلة في تجارة الذهب مع بلاد السودان.

ويبدو أن حروب المرابطين في الأندلس، وتحول الإمارة المتقشفة على ملك واسع شاسع الأرجاء، كل ذلك جعل علي بن يوسف يوظف من المكوس والقبلات، وقد كان

نظام القبالة الذي وظف على الأسواق دقيقا محكما، وكان عبئا ثقيلا على التجار، فاستغله الموحدون في مقاومتهم للنظام المرابطي، وكانت أكثر المصنوعات بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والمنازل، وكانت القبالة "الضرائب" على كل شيء يباع، ولذلك لما نهض الموحدون أسقطوها واستحلوا قتل المنقلبين عليها[24].

هذا وقد كان علي بن يوسف أول من استعمل الروم في جمع المغارم[25]، وقد كانت والدته أم ولد رومية اسمها منوي وتسمى بأم الحسن[26]، فيبدو أنّه قد تأثر بنشأته الأولى مع كثرة تردده على الأندلس في حملاته العسكرية، يضاف إلى ذلك ما أثبته هؤلاء الجباة من دقة في جمع الأموال، وقد كان المشتغلون بمالية الدولة يخضعون لمحاسبة دقيقة، فإذا اعتزل العامل الخدمة حاسبوه فإذا وجدوا عنده تقصيراً سجنوه وصادروا أمواله[27].

أما عن أوجه الصرف والنفقات في دولة المرابطين فقد تنوعت منها على الجانب العسكري ومنها على الفقهاء والعلماء، وكذلك على المنح والهدايا، وإقامة المنشآت المدنية المتنوعة.

والجانب العسكري يعتبر من أهم الجوانب التي اهتم بها المرابطون في مجال النفقات، فيذكر الناصري في حديثه عن عبد الله بن ياسين عندما أنشأ بيت المال بقوله: "ثم أخذ في اشتراء السلاح وإركاب الجيوش من ذلك المال"[28].

وهذا ليس غريبا عن دولة المرابطين التي اتخذت الجانب الجهادي قاعدة لها منذ قيامها حتى سقوطها.

وقد كان عبدالله بن ياسين يبعث جزءا من الأموال التي تتجمع لديه من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة العلم[29].

وقد كان للفقهاء والعلماء منزلة كبيرة عند يوسف بن تاشفين وقد أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال[30].

وخصص المرابطون جانبا من النفقات على المنح والهدايا، فعندما اطمأن يوسف بن تاشفين لخضوع مشايخ قبائل زناتة والمصامدة وغمارة وغيرهم له وصلهم بالأموال لتقوية العلاقة بينه وبينهم[31].

وقد اهتم المرابطون بالبناء والتعمير مثل المباني العسكرية كالقلاع والحصون والأسوار والمنشآت العامة كالمساجد وأشهرها الجامع الكبير الذي بناه الأمير علي بن يوسف.

هذا وقد أنشأ يوسف بن تاشفين داراً للسّكّة بمراكش سنة (464هـ/1071م)، وضرب فيها السكة بدراهم مدورة، وضرب الدينار الذهبي باسم الأمير أبي بكر بن عمر[32]، وعندما تولى يوسف مقاليد الحكم صك عملة نقدية باسمه سنة (473هـ/1080م)[33].

- **ثانياً ـ النشاط الزراعي والرعوي:**

تمتعت منطقة المغرب الأقصى بطبيعة مهيأة للزراعة، فهي تتمتع بشريط ساحلي يطل على البحر المتوسط شمالاً، وعلى المحيط الأطلسي غرباً، وتخللها العديد من الأنهار والوديان التي جعلت منها أرضا خصبة صالحة للعديد من المزروعات.

ويعتبر نهر سيو من الأنهار المهمة فيها، وهو محيط بمدينة فاس من شرقها وغربها[34]، ويصفه اليعقوبي بقوله: "وعلى نهر فاس عمارات جليلة وقرى وضياع ومزارع من حافتيه يأتي ماؤه من عيون قبلية"[35].

ويوجد بالمغرب الأقصى نهر فاس ـ أيضا ـ الذي عبّر عن أهميته اليعقوبي بقوله: "وهو نهر يقال إنه أعظم من جميع أنهار الأرض، عليه ثلاثة الآلف رحا تطحن للمدينة"[36]، ولو أن في هذا القول شيئا من المبالغة فإن أهميته تبدو واضحة.

ويتحدث الأصطخري عن خصوبة أراضي منطقة السوس ومنطقة البصرة القريبة من جزيرة جبل طارق، مدينة أصيلة القريبة من المحيط الأطلسي[37].

وقد اهتم المرابطون بالزراعة، فقد قام علي بن يوسف ببناء قنطرة على نهر تانسيفن، وقد جلب لها الصناع من الأندلس، وقد أدّت دوراً مهما في توزيع المياه على الزروع[38].

يتضح أنه أمام هذه المميزات التي اتسمت بها بلاد المغرب الأقصى لابد أن تكون قد شهدت رخاء اقتصاديا كبيرا على المستوى الزراعي وتوفير حاجيات المواطنين في عهد المرابطين الذين لم يدخروا وسعا للنهوض بالبلاد، ويكفي سيطرتهم على البلاد وتوفير الأمن والهدوء ورخص الأسعار لتحقيق هذه الأهداف.

وقد جاءت أراضي المغرب الأقصى بالعديد من المزروعات والمنتجات في أغلب مناطقها، فقد اشتهرت مدينة سجلماسة بزراعة الذرة، وازدهرت فيها، وقد وصف صاحب الاستبصار قمحها بقوله: "وقمحهم رقيق الحب يسع مد النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من قمحهم 75 ألف حبة"[39].

وقد اشتهرت البصرة وكرت ـ أيضا ـ بزراعة القمح والشعير، واشتهرت اغمات بزراعة الأترج والجوز واللوز والنخيل وقصب السكر[40].

وقد اشتهرت فاس بزراعة الزيتون، ويشير المقدسي إلى كثرة الزيتون بمدينة فاس

بقوله: "وهي بلد كثير الخيرات والتين والزيتون"[41]، وقد انتشرت زراعة الزيتون في العديد من مناطق المغرب الأقصى.

وكانت بالمغرب الأقصى العديد من الخضر من أهمها اللفت والخيار والباذنجان والقرع و الجزر واللوبيا والكرنب وغيرها، والأرز كان قليلا عندهم يزرع في بعض الأماكن من بر العدوة[42].

أما في مجال الرعي فقد صاحب كثرة الغرس والزراعات المختلفة أن حظيت البلاد بثروة حيوانية كبيرة نتيجة لاختلاف السطح والمناخ مما نتج عنه أقاليم رعوية كثيرة، وخاصة في منطقة الأطلس الأوسط، حيث إنه أقل ارتفاعاً من الأطلس الكبير مع وفرة في المياه والأمطار مما نتج عنه انتشار المراعي[43].

هذا وبطبيعة أمراء الدولة المرابطية الاهتمام بالمراعي؛ إذ إنهم اعتمدوا على الأغنام والإبل كمصادر رزق لهم، وخصوصا الإبل، فقد كانوا يستخدمونها حتى في الحروب، فلذلك من الطبيعي أن يحضى هذا الجانب بالاهتمام الأول من جانبهم.

وتعتبر منطقة فازاز من المناطق المشهورة برعي الغنم والبقر والخيل[44]، واتسمت منطقة البصرة باتساع مراعيها وكثرة ألبانها حتى أنها تعرف ببصرة الذبان[45].

وقد اشتهرت أغمات بكثرة المراعي[46]، هذا وقد اشتهرت تلمسان بتربية الخيول، وهي من أفضل السلالات وتعرف بالخيل الراشدية[47].

وقد تنوع اهتمام أهالي المغرب بالثروة الحيوانية، فقد كانوا يمتهنون صيد الأسماك، ويعنون بتربية الدجاج حيث كانوا يهتمون بنظافة دورهم ويحفظونه في أقفاص كبيرة[48].

- **ثالثاـ النشاط التجاري والصناعي:**

كان الطريق التجاري الذي يربط غانا بمصر قد أهمل بسبب العواصف الرملية العنيفة التي كانت تجتاحه، واضطرت القوافل التجارية إلى أن تأخذ طريقها إلى سجلماسة لتنزل بعد ذلك إلى أقصى الجنوب الغربي، وأصبح كثير من تجار أهل الكوفة والبصرة وبغداد يفدون على سجلماسة ليتّجروا بها على جانب المغاربة، وكانت سجلماسة في القرن (5 هـ) من أكثر المراكز التجارية ازدهارا في بلاد الإسلام[49].

يتضح أن الفضل في ازدهار سجلماسة التجارية يرجع إلى المرابطين من حيث سيطرتهم الكاملة على طرق القوافل التجارية التي تربط بين الشمال والجنوب، وتوفير الأمن والطمأنينة للتجار على أنفسهم وأموالهم، وعدم مطالبتهم بدفع الضرائب

الباهضة، هذا وقد استقبلوا إخوانهم العرب المشارقة وأشركوهم في تجارتهم.

وقد كان حكام المرابطين يهتمون بالتجارة وأمورها، فقد قام يوسف بن تاشفين ببناء الفنادق والحمامات وترتيب الأسواق في مدينة فاس سنة (462 هـ/ 1069م)[50].

يبدو أن يوسف بن تاشفين إضافة إلى شهرته السياسية والعسكرية التي ملأت الآفاق قد تميز بمواهب كبيرة في الاهتمام بالنواحي الاقتصادية لأجل تحقيق الرخاء والثراء لأهالي البلاد.

ومما ساعد على ازدهار الحركة التجارية تلك الطرق التي كانت تربط معظم المدن المغربية بعضها البعض، وبجانب ذلك تلك المجموعة من الأنهار التي كانت تشق وديان المغرب والتي كانت تزخر بالقوارب والمراكب محملة بالبضائع المختلفة، فوادي سيو كانت تسير فيه القوارب والسفن الصغار إلى البحر الأعظم، كما أن وادي الربيع كانت تسير فيه المراكب أيضاً، وغير ذلك من الأنهار التي كانت تربط المناطق الداخلية بالسواحل المطلّة على البحر المتوسط والمطلّة على المحيط الأطلسي[51].

وقد أصبحت الصلات التجارية واسعة بين المغرب والأندلس في عهد المرابطين، كما كان التبادل جاريا بين المغرب والأصقاع السودانية، ولعبت أغمات في هذه الفترة دورا تجاريا مهما، حيث كان تجارها الهواريون يعدون الجمال التي يتجهون بها نحو السودان حاملة لقناطر النحاس وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف الأصداف والأحجار الكريمة والعطور والأفاويه وآلات الحديد، وكان التاجر الواحد يتوفر على مابين سبعين ومائة جمل كلها موقرة بالبضائع[52].

وقد وضع المرابطون أنظمة رقابية على الأسواق، كسوق الجزارين مثلا وكانت المواشي قبل أن تحمل إلى الحوانيت تمر على أمين الجزارين لفحص اللحم، والتأكد من سلامته من الأمراض، ثم تسلّم لحاملها ورقة يحدد فيها ثمن البيع بحيث يستطيع كل شخص أن يراها ويقرأ الثمن الذي يباع به اللحم[53].

يتضح مما سبق مدى التنظيم والتطور الذي وصلت له بلاد المغرب الأقصى في عهد المرابطين الذين كانوا حريصين وأمناء على صحة وسلامة الأهالي، وعلى توفير السلع لهم بأرخص الأسعار.

واهتم المرابطون بالصناعة فقد جلب يوسف بن تاشفين الصنّاع المهرة من الأندلس[54].

وكانت فاس ومراكش ونول لمطة من أهم المدن الصناعية بالمغرب، كما كانت اشبيلية والمرية وقرطبة من أهم المراكز الصناعية بالأندلس.

وكانت مراكش تنتج الصابون والمغازل، أما نول لمطة فكانت تصنع الجلد والمنسوجات الصوفية، وكانت فاس تجمع بين عدة صناعات؛ لأن أكثر المهاجرين الأندلسيين كانوا يتجمعون بها، وهكذا كانت تنتج الأواني الزجاجية والنحاسية والكاغد، وكان بها مصانع للدباغة ومصاغات للذهب[55].

يتضح أن المرابطين استخدموا وسخّروا كل الإمكانيات الطبيعية الموجودة في بلاد المغرب على الوجه الأحسن، فقد استثمروا الأراضي الخصبة ونظموا لها قنوات الري، ووفروا الحماية والإمكانيات وسبل الراحة للتجار المحليين والوافدين وغيرها من الأمور حتى عمّ الرخاء في البلاد.

المبحث الثالث ــ الحالة الاجتماعية في دولة المرابطين

- **أولاً ـ عنـــاصـــر المجـــتمـــع:**

يعتبر العرب المغاربة من أكثر العناصر المكونة للمجتمع في دولة المرابطين، وتأتي لمتونة وجداله ومسوفة أقوى قبائل صنهاجة في المقدمة.

وقبيلة لمطة وهي إحدى القبائل الصنهاجية[56]، وقبيلة المصامدة وهي التي سيطرت على مقاليد الحكم في دولة الموحدين، وأما عن مسكنها فيذكر ابن خلدون: "فأما المغرب الأقصى منه، وهو ما بين وادي ملوية من جهة الشرق إلى آسفي حاضرة البحر المحيط، وجبال درن من جهة الغرب فهي في الأغلب ديار المصامدة من أجل درن وبرغواطة"[57]، وبالإضافة إلى العديد من القبائل المغاربية مثل زنانه وفروعها الكثيرة.

ويكوّن العرب المشارقة العنصر الثاني من سكان المغرب الأقصى، وقد دخلوا بأعداد لابأس بها منذ الفتح أيام موسى بن نصير، وزادت أعدادهم أكثر في عهد الدولة الإدريسية التي حرص حكام الأدارسة على استقطابهم وأعطوهم المناصب الرفيعة.

أما ما يخص عرب بني هلال وأخلافهم فلا توجد إشارات واضحة لدخولهم المغرب الأقصى في عهد المرابطين، ويذكر ابن القطان في حديثه عن حرب المرابطين والنصارى عند فتح إقليش سنة (501 هـ/ 1107م) بقوله: "ودخلت إقليش وحصلت بأيدي المسلمين واستشهد في هذه الوقعة الإمام الجزولي، وكان رجل صدق وجماعة من الأعيان والعربان رحمهم الله"[58].

يتضح من هذا النص دور العرب المشارقة الجهادي في دولة المرابطين، ولا يفهم من هذا القول إن كان المؤرخ يقصد بني هلال أو العرب المشارقة الذين سبقوهم.

وقد أضيف إلى السكان في عهد المرابطين عدد من النصارى الذين نفوا إلى

المغرب، ولم يكن المرابطون من الغلظة بالقدر الذي اتهمهم خصومهم، إذ أشركوا هؤلاء النصارى في جيشهم وعينوا منهم مستخلصين للجبايات، إضافة لليهود، ويظهر أنهم عاشوا شبه بعيدين عن العناصر الإسلامية بالمغرب، أو على الأقل فلم تعطهم امتيازات بوصفهم مواطنين منذ عهود سحيقة، وقد انطبع اليهود بروح الانزواء والتآلف فيما بينهم، حتى نجد بساتين أغمات في عهد المرابطين يختص بها اليهود وحدهم تقريبا[59].

وقد كثرت أعداد السودانيين الذين اشترى منهم يوسف بن تاشفين أعدادا كبيرة واتخذهم حرسا خاصاً له[60].

وإضافة إلى قوة السودانيين واستماتتهم في الحروب، كانت نساؤهم ماهرات في فن الطبخ ، فيذكر صاحب كتاب الاستبصار في حديثه عن مدينة أودغست: "ويجلب منها سودانيات طباخات محسنات، تباع الواحدة منهن بـ100 دينار كبار وأزيد، يحسنّ عمل الأطعمة ولا سيما أصناف الحلاوات، مثل: الجوزيتقات، والوزينجات، والقاهريات، والكنافات، والقطايف، والمشهوات، وأصناف الحلاوات، فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن[61].

- **ثانياً ــ طبقات المجتمع:**

تعتبر قبيلة صنهاجة وعلى الأخص فرعها لمتونة وعلى رأسها يوسف بن تاشفين وأعقابه في الطبقة العليا والحاكمة في دولة المرابطين.

ونجد كذلك طبقة العلماء والفقهاء الذين تحدثنا سابقا عن تكريم حكام دولة المرابطين لهم، ونظرا للاتجاه الديني الذي قامت عليه دولة المرابطين فقد كان للفقهاء دور كبير في الرأي والمشورة.

وهكذا أصبح الفقهاء طبقة مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة وكانت منزلتهم وما وصلوا إليه من سيطرة على مقاليد الأمور عاملا من العوامل التي دعت المهدي بن تومرت لمهاجمتهم ومحاربة الجمود الفكري الذي كان يخيم عليهم، ومن ثم رماهم بكل النقائص وظل يحاربهم حتى سقطت دولتهم على أيدي الموحدين[62].

ويضاف إلى ذلك أصحاب المهن المختلفة من الفلاحين والتجار والصناع وغيرهم.

- **ثالثاً ــ المرأة في مجتمع المرابطين:**

كانت المرأة تتمتع في مجتمع صنهاجة الصحراء بحرية واسعة في حدود الإسلام، فكانت تتحمل مسؤولياتها وتشير على زوجها بما تراه فيما يتعلق بشؤون الأسرة وعمل الزوج، وكان رجال المرابطين الواحد منهم يتزوج أكثر من امرأة، وكانوا

يميزون أولادهم بنسبتهم إلى أمهاتهم، وخاصة إذا تشابهت الأسماء فيقولون محمد بن الصحراوية ومحمد بن الغانية، ومحمد بن عائشة[63].

وتعتبر زينب بنت إسحاق النفزاوية أعظم مثل على المرأة المرابطية التي تميزت بالذكاء والحزم والرأي السديد[64].

وشاركت كثير من نساء المرابطين بنصيب من العلم والأدب كحواء بنت تاشفين بن علي وتميمة بنت يوسف بن تاشفين، هذا ويظهر أن الحجاب قد أصبح عادة قبل قيام دولة المرابطين وذلك في المدن على الأقل، إلا أن المرابطين أنفسهم كان يتلثم منهم الرجال فقط، أما النساء فقد كن سافرت[65].

وقد ذهب المراكشي بعيداً في وصفه لأحوال دولة المرابطين بعد وفاة يوسف بن تاشفين بقوله: "واستولت النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور[66].

ويرى الباحث أنه من المستبعد أن تصل أحوال المرأة في الدولة المرابطية إلى هذا الحد من الفسق والفجور، خصوصا في عهد علي بن يوسف المعروف عنه التقوى والصلاح وحبه للجهاد، "ومن المرجح أن عبدالواحد المراكشي قد بالغ في قوله خصوصا أنه من معاصري الدولة الموحدية".

ومع هذا فإنّ سطوة المرأة المرابطية على كثير من الأمور وسفورها يعدّ خللا في هذه الدولة، ويعدّ هذا الأمر من أهمّ العوامل التي ساعدت الموحدين لإسقاط الدولة المرابطية.

الخـــاتمة :

من خلال الدراسة السابقة يمكن أن نستنتج الأمور الآتية:

1- تعد الدولة المرابطية دولة دينية من الطراز الأول، ومع ذلك يبدو أن قيامها لا يخلو من أهداف اقتصادية، وقد تمكنوا من تحقيقها وهي متعلقة بالسيطرة على تجارة الصحراء.

2- انتقل المرابطون من حياة الصحراء وقساوتها إلى مراكز الحضارة والحياة الاجتماعية الراقية، لكن هذا يبدو أن هذا جعلهم يحبون الدنيا ويركنون إليها، الأمر الذي افقدهم خشونتهم التي كانت سببا مهما في ضعفهم.

3- تكريم الحكام في دولة المرابطين الزائد لطبقة الفقهاء وتحكم الأخيرين في مقاليد الأمور، وكذلك تحرر المرأة الزائد وازدياد نفوذها في هذه الدولة، أمران كانا من

أهم الأسباب في سخط العامة عليهم، وهذا ما استغله الموحدون لإسقاط الدولة المرابطية.

الهوامش:

(*) مدينة قديمة أزلية افتتحها عقبة بن نافع سنة (62هـ/682م)، وهي طيبة الهواء كثيرة الأشجار والثمار، مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، العراق، (د.ت)، ص208.

(1) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م، جـ2 ص6.

(2) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت 1981م، جـ2، ص693.

(3) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(4) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، جـ6، ص216.

(5) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف أندلسي في القرن الثامن الهجري، تحقيق: سهيل زكارد، وعبد القادر عمامة، دار الرشاد، الدار البيضاء، (د.ت)، ص10.

(6) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: حسين نصار، وعبد العزيز الأهواني، المكتبة العربية، القاهرة، 1983، ص263.

(*) "مدينة وسطة من حد تاهرت إلا أنها منقطعة لا يسلك إليها إلا في القفار والرمال، وهي قريبة من معدن الذهب بينها وبين أرض السودان وأرض زوليه" أبي اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، مسالك المالك، دار صادر بيروت، (د.ت)، ص39.

(7) ابن خلدون، مصدر سابق، جـ6، ص216.

(8) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأنجلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت 1967م، جـ4، ص13.

(9) مرجع سابق، ص697.

(10) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،ـ تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة بيروت (د.ت) جـ7، ص113.

(11) مصدر سابق، جـ2، ص7، 8.

(12) أبي الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1967، جـ8، ص64.

(*) "مدينة عظيمة آهلة فيها أمم لا تحصى ولها بساتين كثيرة ونخل كثير، وهي بين صحراء لمتونة وبلاد السودان... وتجارتهم إنما هي بالتبر وليس عندهم فضة". كتاب الاستبصار، مصدر سابق، ص215.

(13) مصدر سابق، ص691.

(14) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، كتاب البلدان، دار صادر بيروت، (د.ت)، ص360.

(15) مصدر سابق، ص142.

(16) الحبيب الجنحاني، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، (د.ت)، ص93.

(17) مرجع سابق، جـ2، ص13.
(18) مرجع سابق، جـ2، ص10.
(19) محمد بن أبي القاسم بن أبي دينار، المؤنس في طريق أفريقيا وتونس، دار المسيرة، بيروت، جـ3، 1993م،ص131.
(20) مصدر سابق، ص96.
(21) الحلل الموشية، مصدر سابق، ص27.
(22) مصدر سابق، ص185.
(23) مصدر سابق، ص26.
(24) مصدر سابق، ص99.
(25) الحلل الموشية، مصدر سابق، ص85.
(26) أحمد القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، دار المنصور للطباعة، الرباط 1974م، قسم2، ص460
(27) مصدر سابق، ص186، 191.
(28) مصدر سابق، جـ2، ص10.
(29) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(30) مصدر سابق، ص216.
(31) مصدر سابق، جـ4، ص22.
(32) مصدر سابق، جـ4، ص22.
(33) مصدر سابق، جـ2، ص32.
(34) مصدر سابق، ص233.
(35) مصدر سابق، 358.
(36) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(37) مصدر سابق، ص38.
(38) مصدر سابق، ص236.
(39) الاستبصار، مصدر سابق، ص201.
(40) أبي القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص81، 90.
(41) شمس الدين أبي عبد الله المقدسي، أحسن التعاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، 1906، ص229.
(42) مصدر سابق، ص 248.
(43) المرجع نفسه ، ص249.
(44) الاستبصار، مصدر سابق، ص187.
(45) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت)، جـ1، ص653.
(46) مصدر سابق، ص360.
(47) مصدر سابق، جـ1، ص871.
(48) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1982م، جـ4، ص639.
(49) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط2، 1984م، جـ1، ص219.

(50) مرجع سابق، جـ2، ص29.
(51) مرجع سابق، ص268.
(52) مرجع سابق، ص219، 220.
(53) مرجع سابق، ص640.
(54) علي الجزنائي، جني زهرة الآس لأبناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، 1967م، ص42.
(55) مصدر سابق، ص220، 221.
(56) مصدر سابق، ص297.
(57) مصدر سابق، جـ6، ص319.
(58) ابن القطان، جزء من كتاب نظم الجمان، تحقيق: محمود علي مكي، جامعة محمد الخامس الرباط، (د.ت)، ص9، 10.
(59) مصدر سابق، ص216.
(60) الحلل الموشية، مصدر سابق، ص13.
(61) الاستبصار في عجائب الأمصار، مصدر سابق، ص216.
(62) مصدر سابق، ص238.
(63) حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث للنشر والتوزيع، مجـ2، جـ2، ص49.
(64) مصدر سابق، ص22 وما بعدها.
(65) مصدر سابق، ص217.
(66) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان، مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت)، ص241.